كيف يغفر اللّه لي

كتبه محمد الصغير الأثنين ٢٩ ذي الحجة ١٤٤٢

إن المغفرة من أكثر ما يشغل بال المؤمن الصادق, لذلك تجده دائم البحث عن كيف يغفر اللّه له؟

والسبب في ذلك أن من لم يغفر اللّه له فقد هلك, لأن معصية اللّه سبحانه ليست بالأمر السهل, فهي موجبة لغضب اللّه جل جلاله كما قال سبحانه:

‹ كُلوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقناكُم وَلا تَطغَوا فيهِ فَيَحِلَّ عَلَيكُم غَضَبي وَمَن يَحلِل عَلَيهِ غَضَبي فَقَد هَوى ›

طه: ٨١

إن الآية السابقة تنفطر لهولها القلوب, فهي تتحدث عن غضب اللّه سبحانه وتعالى, والذي سببه تجاوز معصية اللّه, وهنا الكارثة.

فأينا المعصوم من الوقوع في المعاصي؟

بل أينا لا يعصي اللّه باستمرار ليل نهار؟

فأين المفر من غضب اللّه, أين المفر, أين المفر؟!

من رحمة اللّه بعباده المؤمنين التي لا تحصى ولا تعد, أن جعل لهم مفرا من غضبه, فأعلن البشارة العظيمة, بعد تلك الموعظة الجليلة فقال:

‹ وَإِنّي لَغَفّارٌ لِمَن تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا ثُمَّ اهتَدى ›

طه: ٨٢

فتعال نتأمل هذه الآية الكريمة التي فتحت لنا بارقة أمل, للنجاة من غضب اللّه المستحق بما اقترفت أيدينا من ذنوب ولنبدأ على بركة اللّه:

‹ وَإِنّي لَغَفّارٌ ›

تبدأ الآية بواو الابتداء، ثم عدة مؤكدات على مغفرته سبحانه، وهي إن التي تفيد التوكيد، واللام في قوله لغفار، وصيغة المبالغة، والتعبير بالجملة الاسمية.

كل هذا المؤكدات توحي بعدة أمور:

أولا أن المخاطب شاك في أن يغفر الله له، فالبلاغة التي هي مطابقة الخطاب لمقام الحال، تقتضي أن التوكيد لا يحصل إلا مع الشاك المتردد أو المنكر، ولذلك فمادام الله أكد بكل هذه المؤكدات علمنا أن المخاطب - وهو نحن - شاك في إمكانية حصول مغفرة الله له ولو لم يصرح بذلك بلسان مقاله.

هذا اليأس من مغفرة الله سبحانه هو علامة على الضلال:

﴿ قَالَ وَمَن يَقنَطُ مِن رَحمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالّونَ ﴾

الحجر: 56

ومن ثم فهو سبب التمادي في معصية الله بحجة أنه لا يمكن أن يغفرها الله أبداً، وهذا في حد ذاته جرم آخر عظيم.

ثانيا أن من لم يغفر الله الغفار له، فهو بلا شك يستوجب عذاب الله الشديد.

لذلك علينا أن لا نقنط أبدا من رحمة الله فهو يغفر الذنوب جميعا لمن حقق الشروط التالية

شروط حصول مغفرة الله لك

إنه سبحانه لغفار لمن حقق مجموعة من الشروط ذكرتها الآية، وهي بمجملها تعبر عن صدق العبد في طلب المغفرة من الله ولنقف معها شرطاً شرطاً

التوبة

أول شرط يجب تحققه هو التوبة إلى الله

لِمَن تابَ

والتوبة تعني الإنابة إلى الله سبحانه، وهنا نسأل هل حين يعصي العبد الله يكون قد تولى عن الله وابتعد، حتى نتحدث عن التوبة؟

نعم المعصية بُعدٌ عن الله, وجهل وتولي وغواية, ولذلك على العاصي أن يعود إلى الله.

أن يعود للحق, للفطرة.

كيف يجرؤ على معصية خالقه, ورازقه, مدبر أمره كله, المفتقر إليه في لحظة وحين؟!

كلا إن الإنسان لظلوم كفّار

لذلك يجب تصحيح هذا الوضع فوراً, وأخذ القرار الصارم بالرجوع إلى الله فورا, وإلا فإن الله لا يحب الكافرين:

﴿ قُل أَطيعُوا اللَّهَ وَالرَّسولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الكافِرينَ ﴾

آل عمران: ٣٢

الإيمان

الشرط الثاني هو الإيمان:

وَآمَنَ

ولنقف مع هذا الشرط مطولا ونطرح الأسئلة التالية:

هل كان العاصي كافرا حين عصى, حتى يشترط الله الإيمان؟

وهل يمكن أن تحصل توبة, ولا يحصل إيمان, فلا يكتفي الله بالتوبة في شروط حصول المغفرة؟

لنبدأ بالبحث عن أجوبة السؤال الأول:

هل كان العاصي كافراً حين عصى؟

إن الجواب نجده في نفس السورة حين تحدث ربنا عز وجل عن أول معصية اقترفها الإنسان فقال عن آدم عليه السلام:

﴿ فَأَكَلا مِنها فَبَدَت لَهُما سَوآتُهُما وَطَفِقا يَخصِفانِ عَلَيهِما مِن وَرَقِ الجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى ﴾

طه: ١٢١

فالعاصي حين معصيته وقع في الغواية، وينتفي عنه الإيمان والآية صريحة، ويؤكد على هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف، يرفع المسلمون إليه أبصارهم وهو مؤمن»

أخرجه مسلم والنسائي وابن حبان

لذلك نعم حين يعصي العاصي ينتفي عنه الإيمان، كما دلت على ذلك الآية السابقة والحديث، ومن ثم فلابد من أن يؤمن وذلك بتوبته عن معصية والإقلاع عنها، لأنه لا اجتماع بين إيمان ومعصية الله.

رغم وضوح ما سبق، إلا أنه يبدو غريبا مستهجنا عند كثير من الناس، وذلك نظرا ل:

أولا رغبة الناس في معصية الله، ولذلك يسعون لا شعوريا في التخفيف من شأنها، ويساعدهم على ذلك أحبار السوء الذين علموهم أنه لا تضر معصية مع الإيمان، وكأن الإيمان والمعصية من جنس واحد، والعياذ بالله من حالهم

ثانيا قد طبع الله على قلوب الناس بكفرهم، فصاروا لا يعقلون يجمعون بين النقيضين

إيمان وهو طاعة الله وانقياد له، وبين معصيته.

والعجيب أنك إذا سألتهم ما هو الإسلام؟

لقالوا هو الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة.

فأين معصية الله إذاً من الإسلام؟

السؤال الثاني هل يمكن أن تحصل توبة دون إيمان؟

الجواب نعم أيضاً، يمكن أن يتوب المرء وهو ليس بمؤمن فعلا، وذلك في عدة حالات

الأولى أن لا يكون مسلما أصلا، ومع ذلك هو تائب لله، ولكنه مخطئ في طريق التوبة، إما لجهله بماهية الإسلام أصلا، وهذا هو الغالب على الناس، أو إعراضه عنه.

الحالة الثانية لتلبسه بمعصية أخرى لم يتب منها أيضا.

لذلك التوبة وحدها لا تستلزم الإيمان، فالإيمان يستلزم العلم بالإسلام والإقلاع عن جميع الذنوب.

فالذي يشرب الخمر مثلاً ويكذب، إذا تاب من شرب الخمر وحده، لا يعتبر مسلما حتى يتوب من الكذب أيضا ويكون فعلا مسلما لله قد أخذ القرار بالإسلام.

العمل الصالح

الشرط الثالث من شروط المغفرة هو العمل الصالح:

وَعَمِلَ صالِحًا

لا تكفي التوبة وعدم المعصية، وإنما العمل الصالح أيضاً الذي يقرب من الله، فالذي كذب وتاب من كذبته وأقلع عن الكذب، عليه أن يعمل الصالحات أيضاً حتى يغفر الله له جرمه.

ويستوي في ذلك المسلم الذي اقترف ذنباً، أو الكافر الذي اقترف ذنبا ثم أسلم، فمغفرة ذلك الذنب مرتبطة بالعمل الصالح كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«قلنا: يا رسول الله، أرأيت ما عملنا في الشرك، نؤاخذ به؟ قال: من أحسن منكم في الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل في الشرك، ومن أساء منكم في الإسلام، أخذ بما عمل في الشرك والإسلام»

أخرجه البخاري وغيره

قبل أن أختم الحديث عن هذا الشرط يطيب لي أن أقف مع الحالة النفسية للمؤمن اتجاه ذنبه، والتي تمثلت في حالة الصحابة رضوان الله عليهم، فسؤالهم يدل على أن ما اقترفوه من معصية يؤرق مضاجعهم، لذلك هممهم الحصول على المغفرة بأي ثمن، ومن ثم فإنهم يسألون، لأنهم آمنوا بالآخرة، وعلموا أن لا ملجأ من الله إلا إليه.

المجاهدة في الله

الشرط الأخير للحصول على المغفرة، هو حصول الهداية والذي عبر عنه في قوله:

ثُمَّ اهتَدى

إن حصول الهداية مربوط بتحقق شرطها والذي عبر عنه في قوله:

﴿ وَالَّذينَ جاهَدوا فينا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحسِنينَ ﴾

العنكبوت: ٦٩

فلابد إذاً من مجاهدة في سبيل الله وصبر حتى تتحقق الهداية ومن ثم المغفرة, لأنه ساعتها وفقط ساعتها يكون المرء صادقا في رجائه لرحمة الله كما قال:

‹ إِنَّ الَّذينَ آمَنوا وَالَّذينَ هاجَروا وَجاهَدوا في سَبيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرجونَ رَحمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ ›

البقرة: ٢١٨

وفي الأخير أسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وينصرنا على القوم الكافرين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.